البائس

فى ليلة من ليالى الشتاء حالكة الظلمة قارسة البرد كنت راجعاً إلى منزلى وقد مضى الهزيع الأول من الليل بعد أن قضيت سهرة طيبة مع رفاق طيبين ، تمتعنا فيها بالسمر الرائع والفكاهات العذبة والضحك الطويل . وما كدت أخطو بقدمى إلى خارج المنتدى الذى كان يضمنا حتى شعرت بوطأة البرد وشدة وقعه ، فهزت الرعشة جسمى وسرى البرد فى أوصالى فلم أجد أمامى مخرجاً من هذا العدو الجبار إلا أن أحكم أزرار الملابس الثقيلة التى كانت تغطى جسدى ، وأطلقت لساق العنان حتى تبعث الحركة فى بعض الدفء .

وفيما أنا سائر أغالب البرد وأخترق حجب الظلام لمحت على بعد شبحاً غريباً كأنما سمر فى مكانه بيد أنى حين أمعنت النظر وجدته شبحا لإنسان ، ولما دانيته عرفت أنه ليس مستقراً وإنما هو متحرك وإذا زاد اقترابى منه رأيت أنه مخلوق يسير كالنائم أو كالحالم أو كالمعتل بطىء الخطى لا يسمع لمشيه صوت كأنما يخشى أن يطأ الأرض بقدمه ، ولما صرت منه على بعد خطوات أدركت تلك الحقيقة القاسية المرة التى أنستنى الليل وأنستنى الظلمة وأنستنى البرد وكادت تنسينى نفسى ، ذلك هو شبح من أشباح الإنسانية المعذبة وتلك هى صورة مثيرة من صور الشقاء والبؤس القاتل والعذاب المميت ، شبح شيخ هرم أخنى عليه الدهر وحط عليه العصر ، وأناخت عليه الذلة والمسكنة ، فلفظته الدور إذ لم يجد داراً منها تؤويه ، فضرب فى مسالك المدينة بين مظاهر الترف الزاخر ، والنعيم الظاهر والغنى الجم . كليل البصر ، خاوى البطن حافى القدم عارى الجسم إلا من أسمال بالية وخرق ممزقة لا تستر عورة ولا تسد حاجة ، نام الناس من حوله فنعموا بالمضاجع الناعمة والفرش الوثيرة ، وسعدوا بالأحلام الباسمة السعيدة . أما هو . . فقد أعوزته الدار وعز عليه الفراش ، ولم يعد أمامه غير هذا البحر المترامى يضرب فى أرجاءه ويخوض فى غماره ويغالب لججه وأمواجه حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

لك الله أيها البائس المسكين . . . أهكذا تقضى ليلك هائما على وجهك ، لا إلى وجهة تريدها ... ولا إلى مكان تقصده ولكن إلى حيث لا تعلم وحيث لا تستطيع أن تعلم لهفى عليك أيها المسكين فيم تفكر الآن ، وفى أى أفق يحلق خيالك . . . أم هل ضاقت عليك حتى آفاق الخيال وعوالم التفكير ؟

لقد كنت أخشى الظلام قبل أن أراك وكنت أرتعد من البرد قبل أن يقع نظرى عليك وكنت أظن أننى مخاطر بنفسى كل المخاطرة حين أتنقل أو أجرؤ على المشيء فى مثل هذا الجو .

أما الآن . . الآن وقد رأيتك وعرفتك فما البرد ، وما الظلام بل ما هذه الدنيا بأسرها ؟؟ ! .

أينام الناس فيسعدهم النوم وعلى مرأى منهم ومسمع أنت مكدود بائس ؟ أينامون ويستريحون وعلى قيد خطوات منهم شيخ محروم مثلك ؟ ألا لك الله ليتنى أستطيع أن أسبر غورك وأن أتبين ما يجول بخاطرك . . . ولكنى موقن إنك لن تقول إلا ما قاله الشاعر .

لبست ثوب العيش لم أستشر
وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم
أدرك (لماذا جئت أين المفر)

باسم القطامى

البعثة

نشرة ثقافية تصدر عن بيت الكويت بالقاهرة
١٦ شارع عدى بالدقى
تليفون رقم ٩٤٠٧١

تطلب فى الكويت
من مكتبة التلميذ